المكان في شعر الثعالبي

م. م. طارق حسين علي النعيمي

المديرية العامة لتربية نينوى

(قدم للنشر في ٢٠١٨/٢/١٨ ، قبل للنشر في ٢٠١٨/٣/٢٠)

ملخص البحث:

تميز الثعالبي بكونه شاعراً فضلاً عما عرف به كاتباً ، وقد تميز المكان في نصوص قصائده ومقطوعاته ، لذا جاء هذا البحث لدراسة أنماط الأمكنة بقراءة تحليلية تعمل على تلمس جماليات المكان وقيمه الفنية والموضوعية في الديوان الذي حققه (الدكتور محمود عبد الله الجادر) ورتبه من قافية الهمزة إلى الياء .

قام البحث على مدخل ومبحثين . تضمن المدخل تحديد مفهوم المكان وموجز عن حياة الثعالبي وشعره . وخص المبحث الأول لدراسة (المكان الطبيعي) من حيث الأرض : اليابسة (الرياض والجبال والصحراء) ومن حيث الماء (البحار والبرك والينبوع والغدير) ومن حيث السماء (الشمس – القمر – النجوم – الغيوم) في حين تضمن المبحث الثاني دراسة (المكان الصناعي) من حيث المدن غير العربية (نيسابو وبست وغرنة و خوازرم و جرجان و فتح الري وكرمان وجرجانية و سرخس و سجستان) والمدن العربية (مصر و بابل و بغداد) .

The Place in the Poetry of AL-Thaalbi

Abstract:

ALThaalbi is known as being a poet in addition to being a writer. The place was distinctive in his odes and strophes, for this reason this research came to analyze the patterns of places by analyzing reading work on touching the beauties of the place and its artistic and objectivity value in the divan that grossed by (the doctor Mahmmod Abdullah AL-Jadiry arranged it from the rhyme of A-to Z.

The research is based on one entrance and two detectives. The entrance contained the determination of the concept of place and the summary of life and poetry of ALthaalbi.

The first detectives concerned with studying (the natural place) whence the earth : the land (the gardens- the mountains and the desert)
and water (the seas- the lakes- the fount and the bourn) and whence the sky (the sun – the moon- the stars and the clouds) while the second detective contained studying of synthetical place whence the non Arabic cities (Nisabour-bist-ghurna-khuarsim- Jurjani- Fathalray-kerman-Borjania- Sarkhas and Sjestan) and the Arabic cities (Egypt, Babil, and Baghdad).

مدخل :

١- مفهوم المكان

المكان لغةً : هو الموضع والجمع أمكنةً ، وأماكن هو جمع الجمع[١]أما المكان اصطلاحاً فقد نشأ مع الفلسفة اليونانية فهو "ما يحل فيه الشيء أو ما يحوي ذلك الشيء ويميزه ويفصله عن باقي الأشياء"[٢]إذ يعد أفلاطون أول من عرف المكان تعريفاً اصطلاحياً إذ جعله حاوياً للأشياء"[٣] وجعله أرسطو الجسم في تماس مع ما يحويه المتحرك في حركة انتقال[٤]لذا يعرف المكان هندسياً بأنه "وسط غير محدد يشتمل على الأشياء وهو متصل متجانس لا تمييز بين أجزائه وذو أبعاد ثلاثة : هي الطول والعرض والارتفاع"[٥]ولذا يكون المكان "مساحة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس و الحجوم ويتكون من مواد ولا تحدد المادة بخصائصها الفيزيقية فحسب بل هو نظام بين العلاقات المجردة فيستخرج من الأشياء الملموسة بقدر ما يستمد من التجريد الذهني"[٦] .

يؤدي المكان دوراً كبيراً في عملية الإبداع لان النص الأدبي لا بد له من وعاء يحتضن أحداثه[٧]إذا يمثل محوراً أساسياً من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب إذا أصبح عنصراً ضرورياً من عناصر العمل الأدبي ويشكل تفاعلاً معها مما يعطي بعداً جمالياً للنص الأدبي[٨] إذ أن "المكان دون سواه يثير إحساساً بالمواطنة وإحساساً أخر بالزمن وبالمحلية حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه"[٩] ويسهم المكان بوصفه كياناً مادياً بتشكيل طرف مهم من التاريخ الخاص للعمل الأدبي[١٠] .

يكتسب المكان جماليته في النص الأدبي من مخيلة الأديب ومشاعره التي يبثها تجاهه ،ذلك المكان ، ويتكون المكان الأدبي من "بنيتين تتفاعلان هما : بنية بصرية يتفاعل البصر البشري مع المرئيات المحسوسة وبنية متخيلة وهي بنية وجدانية تقوم بتحويل المرئيات إلى انساق كبرى عاطفية"[١١]ويختلف المكان في الأدب عن المكان في الواقع فهو "هنا ليس كياناً مادياً مجرداً وإنما هو عنصر فني مكتنز بالقيم والأفكار ويحاكي صور الأشياء في الواقع بالمعنى او الرمز والدلالة بإطار التركيب المجازي له داخل القصيدة أو النص الشعري المنتخب"[١٢]فحضوره "في التجربة الإبداعية يفقده بعضاً من خصوصيته الواقعية ويزوده بجملة من الخصائص المجازية التي ترتكز أساساً على ذاتية الأديب ، وتتغذى من فضاء التجربة المعيشية ومناخ الإحساس الذي ينتابه ويصاحبه أينما حل وارتحل"[١٣]ولا تبقى الأمكنة جميعها التي نعيشها أو نحلم بالعيش فيها جامدة خاصة إذا يتعلق الأمر بالأديب فإنها تسكن ذاكرته وتأسر خياله فيتحول المكان من مكان مادي إلى مكان خيالي

فني[١٤] ويتشكل في الشعر باللغة التي تمتلك بدورها طبيعة مزدوجة لأن للغة بعداً فيزيقياً يربط بين الألفاظ وأصولها الحسية[١٥] ونجد إذا تصفحنا ديوان الشعر العربي للمكان حضوراً بارزاً سواء أكان المكان طبيعياً أم صناعياً فقد اهتم شعراء العرب بالطبيعة اهتماماً كبيراً فوصفوا البيئة الصحراوية بما فيها من الرمال والصخور والتلال والوديان والغدران والجبال والدروب وما يعلوها من السماء والنجوم والسحاب والغمام فضلاً عن الأمكنة الصناعية من المدن والبيوت والديار والمنازل والمعالم الدينية والحضارية وغير ذلك[١٦] .

مميزات شعر الثعالبي

أثار شعر الثعالبي إعجاب عدد ممن عني بذكر أخباره أو متابعة سيرته من القدماء والمعاصرين ، ويجد (الدكتور محمود عبد الله الجادر) بعد قراءته لشعره وتحقيق ديوانه الخصائص الآتية[٢٣]:

١- يمتلك الثعالبي حساً فنياً لا بأس به ولكنه لم يكن شاعراً من طراز عالياً وإنما يمثل شعره نمطاً شاع في القرن الرابع للهجرة فهو لا يتدنى عن مستوى شعر عشرات الشعراء الذين حفلت اليتيمة بتراجمهم ولا يزيد عليه .

٢- غلب على شعر الثعالبي بيئة الشاعر وعصره من استخدام الزخارف والمحسنات اللفظية من الجناس والطباق والاقتباس وغلبة استخدام الألفاظ الأعجمية والاصطلاحية في مقطوعات قصيرة النفس .

٣- تتراوح معاني شعر الثعالبي بحسب الغرض الذي يطرقه فهو يتوخى في المدح المعاني العميقة التقليدية ، ويميل في غزله إلى المعاني الحسية ، ويميل في الشكوى إلى المعاني الشفافة ، و يعمد في وصفه بين المزج بالألوان والأشكال حتى بدت مقرفة جداً في الزخرف المصطنع .

٤- يميل الثعالبي في شعره إلى البحور الطويلة لعدم تمكن من الحركة الواسعة في البحور القصيرة التي شاعت في عصره والتي تتطلب جهداً فنياً لم يكن هو كثير التفرغ فيه .

٥- استمد الثعالبي مادة شعره من البيئة والعصر إذ تمثل شكواه روحاً حزيناً قلقاً تروي الأحوال وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، ويمثل مديحه المبالغة في منح الصفات لمن يطلب الحظوة والمكانة عندهم .

٦- يمثل شعر الثعالبي صورة من صور التراث الشعري لا تخلو دراستها من الفائدة والمتعة فضلاً عن قدرة نتاجه الشعري في الكشف عن بعض تفاصيل الحياة التي انبثق

فيها وسجل ملامحها فكان شعره وثيقة من وثائق تاريخها وبيان سماتها الاجتماعية والفكرية والفنية .

تميز شعر الثعالبي بمقطوعات وقصائد قصيرة تعبر عن نفسه الشعري غير الطويل تجاه كثير من المواقف التي رآها في عصره فضلاً عن توثيق الحوادث التاريخية والأمكنة التي عاش فيها وتنقل طلباً للعلم وإيجاد فرصة للتأليف .

المبحث الأول : المكان الطبيعي

هو المكان الذي يستمد جماله من الطبيعة ولا يكون للإنسان دور في إضفاء هذا الجمال عليه[٢٤] ويشتمل المكان الطبيعي على السماء والأرض إذ كانت الملاذ الفكري والروحي للشاعر بحثاً عن الجمال والهدوء والراحة . ويهتم الشاعر بالطبيعة ويتصل بها اتصالاً عميقاً وشخصياً[٢٥] حتى أصبح شعر الطبيعة

أقولُ والقلبُ منّي في تلقُّته
وقهقه رعدٌ في السماء مجلجلٌ

يقدم الشاعر الأفق بوصفه مكاناً يجمع بين الأرض والسماء بغرض النسيب إذ يحدثنا عما يجري في قلبه تجاه الحبيبة التي يناديها بالبدر الغائب في الأفق ، فقد جعلها بجمال البدر الذي غاب وضاعت ملامحه في مكان هو (الأفق) مما يوحي بالقيمة غرضاً يهتم به الشعراء اهتماماً كبيراً وأكثروا من القول فيه وأصبح بعضهم يشتهر به كثيراً[٢٦] .

ويختلف الشعراء في تصوير الطبيعة إذ يمكن أن تتناول بالطريقة الواقعية من حيث وصف المناظر كما هي أو بالطريقة المثالية في تكميل ما في الطبيعة بوساطة الخيال[٢٦] واهتم الشعراء العباسيون بالطبيعة ووجدوا في مظاهرها المختلفة دلائل أكيدة على قدرة الخالق إذ وصفوها بأشكالها المختلفة من الجبال والكثبان والسراب والليل والغيوم و . . . . مما يدل على إحساسهم بالرابطة القوية التي تضمهم إلى الطبيعة[٢٧] .

١- الأفق :

يذكر الشاعر الأفق بوصفه مكاناً طبيعياً :

يا بدرُ يا غائباً في أفق مغربه[٢٨]

الجمالية التي يتلمسها القارئ من ذكر ذلك المكان الطبيعي الأرضي والسماوي معاً .

ويعبر الشاعر عن المكان الطبيعي أرضاً وسماءً فيقول :

وفي الأرض إبريقُ المدام يقهقِهُ[٢٩]

الأرضُ تشرق والأمطارُ تسقيها

يقدم الشاعر الأرض والسماء معاً بصورتين يبدأ في الأولى بذكر السماء بالرعد وصوته المجلجل ثم الأرض مكان العيش الرغيد في حين يجعل الأرض في الصورة الثانية مكاناً للشروق ، ويجعل السماء بدلالة (الأمطار) التي تنزل منها هي السقيا فضلاً

كأنّما الأرضُ شجراء من الذهب الـ

الأرضُ طاووســـــــــــــــــــــــيَّة

وكأن علا في الأرض يخبطها أبو

والأرض قد لبستْ قميصاً أخضراً

وإن توطَّيت نيسابـــورَ طبّقت الـــ

ربما تكون الأرض التي وصفها الشاعر بالشحراء هي شجراء على خضرتها الدائمة بالأشجار التي ترمز للخلود والديمومة بلونها الأخضر إذ يعمل الشاعر على وصف الأرض في ليلة من الليالي الظلماء في حين يصف الشاعر الأرض في صورة أخرى بأنها طاووسية ممتدة من حجمها كما يمد الطاووس جناحيه في جو من هديل الحمام وتبدو الأرض بشكل عام من الصورة الثالثة لان الشاعر ذكرها على سبيل

والطير بالسحر من شعري تغنيها[٣٠]

عن الطير الذي ينشد الألحان . وجاءت هذه الأمكنة في الحديث عن خصائص الخمرة .

٢- الأرض والسماء

ويبرز الشاعر الأرض بوصفها مكاناً طبيعياً بأوصاف متعددة :

إبريز ساميةٌ نحو الغميضاءِ[٣١]

والجـــوُّ جـــــــؤجـــــــُؤ فاختِ[٣٢]

عليّ إلى أن طوّحته الطوائحُ[٣٣]

تختالُ فيه بطيلسانٍ احمـــــر[٣٤]

ـعلياءُ منك برد السهلِ والجَبَل[٣٥]

الحادثة التاريخية التي تتعلق بوالي خرسان في ذلك الوقت ، وتبدو الأرض في الصورة الرابعة بلونها الأخضر فشبهها الشاعر بإنسان يرتدي ثوباً اخضر على سبيل الاستعارة المكنية . وتبدو الأرض في الصورة الخامسة فتبدو الأرض بموجوداتها من السهل والجبل .

٣- اليابسة

أ- الرياض

ويكثر الشاعر من ذكر الرياض بوصفها مكاناً طبيعياً إذ يقول :

في روضة أزهارها مسكوبـــــــة ... والظّل مـــن أشجارها ممـــــــــــدودُ

فيها طرائفُ نرجسٍ وشقائـــــقٍ ... فكأنّها مـــــن اعيـــــــــــنٍ وخدود[٣٦]

والروضُ بيـــــن مُدَملجٍ ومتوّجٍ ... والوردُ بيـــــنَ مُدرهمٍ ومُـــــــــدَنّر[٣٧]

أنسيمُ الرياضِ حولَ الغديـــــــــر ... مازَجتهُ رَيّاً الحبيب الأثـــــــــــير[٣٨]

رأيتُ به في الروضِ أحسَنَ منظرٍ ... يدلُّ على صُنعِ المهيمن ذي اللُّطفِ[٣٩]

وللرياضِ أزاهيرٌ مشوّقـــــــــــةٌ ... يحكين لفظ ابن مشكانٍ وأخلاقـــــــــه[٤٠]

تبدو الروضة في الصورة الأولى بوصفها مكاناً طبيعياً من حيث الأزهار وظلال الأشجار فضلاً عن تحديد نوعين من الورود البرية : النرجس والشقائق مما يدل على فصل الربيع الذي تزهر فيه إذ يجعل هذين النوعين بمثابة الأعين والخدود ، وتبدو الروضة في الصورة الثانية متوجة بالورد بأنواعه وأشكاله مما يثير المتعة الجمالية للقارئ ، ويمزج الشاعر في الصورة الثالثة بين الرياض والغدير إذ يشكل وجود الماء الذي يرمز للحياة ألقاً فوق ألق الروض ، وتبدو الصورة الرابعة للروض من وجهة نظر الشاعر الذي يجد في هذا الروض الذي يتحدث عنه أحسن منظر ليوحي بصنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء خلقه ليصل إلى الصورة الخامسة التي يتحدث فيها الشاعر عن المكان بالرياض المتعددة التي يذكر أزاهيرها التي تحمل الحكايا والألفاظ عن كل ما هو جميل بتعلقه بالشخصيات وأخلاقها

وصاحبُ جرجانيّة في ندامةٍ ... ترصّده طرفٌ من الحينِ طامحُ[٤١]

خيولٌ كأمثالِ السيولِ سوابحٌ ... فيولٌ كأمثال الجبالِ سوارح[٤٢]

ب- الجبال

ويأتي ذكر الجبال في شعر الثعالبي إذ يقول :

تبدو الجبال في شعر الثعالبي باقترانها بالوالبي البويهي (أبو الحسن علي بن ركن الدولة) في قصيدته التي يتحدث فيها عن هلاك تسعة ملوك في سنتي ٣٨٧- ٣٨٨ في حين يذكر الجبال بوصفها مكاناً طبيعياً يدل على الشموخ والعلو والارتفاع بتشبيه

فابرُز إلى الصّحراءِ في أيّامه
غديت مسافراً رِكِبَ الفيافـــي

تبدو الصحراء مكاناً مفتوحاً أمام السائر في الأرض ، وتبدو في النص الأول بوصفها المكان الذي يتحول في نظر الرائي من الغبرة إلى الخضرة عندما يصف الشاعر الربيع وطلوعه وتبدو الصحراء بلفظ الجمع (الفيافي) في النص الثاني عندما يتحدث

انظروا هكذا تزولُ الرّواسي
أيا طيبَ عيشي أرى بركةً
أنسيمُ الرياضِ حولَ الغديرِ
محمدٌ لمروءات الأنام غدا

يقدم الشاعر صورة الماء في النص الأول بلفظ (البحار) التي تفيض بالماء في مرثيته للخطابي إذ بموته تزول الروابي في الثرى مما يجعل البحار تفيض من شدة الحزن والأسى ، ويبدو الماء في الخيول بالسيول والجبال معاً إذ استدعى الشاعر الجبال ليرمز إلى مكان الولاية ومن ثم يقرنها بالخيول لتدل على الثبات والقوة .

ج- الصحراء

وتأتي الصحراء في شعر الثعالبي مرتين إذ يقول :

حتّى ترى الغَبراءَ كالخضراءِ[٤٣]
وأثر فـــــــي محاسنه السّفارُ[٤٤]

الشاعر عن غلام مسافر بجعله يركب هذا المكان ليدل على محاسنه ولما له من أثر في نفس الشاعر .

- **الماء**

وإذا كان الشاعر قد ذكر الأرض بوصفها مكاناً طبيعياً بمعالم اليابسة فهو يذكر الماء إذ يقول :

هكذا في الثَّرى تفيض البحارُ[٤٥]
تسوقُ إلى روضِها ماءَها[٤٦]
مازَجَتهُ ريّاً الحبيب الأثيرِ[٤٧]
كالزَّندِ للنار والينبوعِ للماءِ[٤٨]

النص الشعري الثاني بوصف البركة محل العيش الرغيد التي تعمل على سوق المياه للروض الذي توجد فيه . ولذا يقدم الشاعر منظر طبيعي في غاية الرقة ، ويقدم الشاعر صورة ثالثة للماء بـــ (الغدير)

ليلمح بجمال المكان بوجود الرياض حول هذا المكان المائي ، ويبدو الماء بدلالة (الينبوع) بشعر المديح إذ يعمل الشاعر على مدح (محمد) أحد وزراء خوارزشاه بان يجعله بالنسبة للناس كالزند للنار والينبوع للماء إذ يرمز الينبوع للحياة بأسرها فهو أساس وجود

قد سقتنا السماءُ مـــــاءَ الغيومِ
شركتَ الشمسَ في حسنٍ ونور
كأنّما شمسه قد أبصرت قمري

ويقدم الشاعر السماء بصورة الخير إذ يعمل هذا المكان على السقيا بالماء بموجودات (الغيوم) ليلقي بظلال هذا الفعل المكاني على الغلام الذي يطلبون منه السقيا بماء الكروم ولذا يقدم الشاعر الموازنة الوصفية بين السماء (ماء الغيوم) والغلام (ماء الكروم) فالماء الأول للحياة بأسرها ، والماء الثاني لأشخاص معدودين يطلبون الراحة والاستجمام ، ويبرز الشاعر في النص الثاني موجودات السماء من حيث الشمس والقمر بما تعطيه

كأنّما الشمسُ سكرى فهي راجعةٌ
فالشمسُ محجوبةٌ والريحُ مدميةٌ
والشمسُ مـــع كلِّ هذه طلعت
فهاتها كشعاع الشمس صافيةٌ

الماء الذي هو الحياة بعينها و يذكر الشاعر الينبوع ليلقي بظلاله على شخصية الممدوح .

- **السماء**

ويذكر الشاعر السماء بوصفها مكاناً طبيعياً إذ يقول :

فاسقنا يا غلامُ مـــــــاءَ الكروم[٤٩]
وإدباءٍ علـــــــى القمر المنيـــــر[٥٠]
يُربي عليها فغطّت وجهها خجلا[٥١]

الشمس من الحسن والنور ، وما يعطيه القمر من النور ، وتبدو في النص الثالث موجودات السماء في الشخوص (شمسي وقمري) للإيحاء بجمال هذين المكونين السمائيين وأثرهما في نفس الشخصية .

أ- الشمس

ويكثر الشاعر من ذكر الشمس إذ يقول :

مـــــن قبل موعدها تومي بأضواءِ[٥٢]
جلودَ قومٍ أضاعوا الصَّبر والجلدا[٥٣]
مـــــــن جيب ساقٍ ممسّك الخدّ[٥٤]
بكـــــــــراً ربيبةً أبيات الدَّهاقين[٥٥]

يصف الشاعر الشمس بوصفها مكاناً سماوياً بالسكرى برجوعها قبل الموعد بأضوائها مما يدل على الوصف الدقيق لحركتها في حين تبدو الشمس في الصورة الثانية محجوبة بوصف الشاعر لبرد خوارزم الذي يحدث في الشتاء ، وتبدو الشمس في الصورة الثالثة بطلوعها إذ يرصد الشاعر حركتها ولكن بصورة مجازية بجيب ساق ممسك الخد مما يدل على الوصف المعمق لدواخله النفسية وشعوره بالسرور والسعد ليصل الشاعر في الصورة الرابعة إلى وصف شعاع

انظروا كـــــــيف تخمدُ الأنوارُ
قد غاب عن ربعي هلالٌ مقمرٌ
انظر إلى البدر في أسر الكسوف بدا
وخلق هو البدرُ لا شك فيــ

يستعرض الشاعر (القمر) بمرثيته للخطابي إذ بوفاته تخمد الأنوار وتسقط الأقمار مما يدل على المصاب العظيم الذي أصيب به القوم برحيل هذه الشخصية ليعمل الشاعر على تقديم المكان السماوي من خلال الرثاء في حين يقدم القمر من خلال مرحلة من مراحله (الهلال) في حديثه عن مملوك باعه إذ انه غاب عن سكنه هذا الهلال المقمر ، ويسعى الشاعر لوصف الشخصيات بالقمر ليوحي بقيمتها العالية في نفسه رثاءً أو وصفاً ، ويقدم في الصورة

يا ليلةً طالت كأن نجومـــــــــــها

الشمس الصافي ولذا يقدم الشاعر الشمس بأوصاف متعددة تدل على براعته العالية في تقديمها وظلالها على نفسيته وعلى المكان الذي يعيش فيه.

ب- القمر

وكما يكثر الشاعر من ذكر الشمس بأوصاف متعددة يذكر القمر بمراحله الشهرية إذ يقول :

انظروا كيف تسقطُ الأقمارُ[٥٦]
في أفق تربيتي وفي تأديبي[٥٧]
مستسلماً لقضاء الله والقدرِ[٥٨]
ــه رتّبه الله ربُّ البشـــــــر[٥٩]

الثالثة كسوف البدر ليدلل على الاستسلام الكامل والانقياد لقضاء الله تعالى وقدره . وتقدم الصورة الرابعة فيقدم البدر بمقولته الإيمانية بأنه من ترتيب الله تعالى كما قدمها في الصورة التي قبلها .

ج- النجوم

ويستطرد الشاعر كثيراً في ذكر النجوم إذ يقول :

غُرماءُ أرقُبهم لديـــــــنٍ واجب[٦٠]

وتصرّفت بك في المكارم والعُلى ... همٌ على قممِ النجوم تصرَّفُ[٦١]

صديـــــــــــقٌ لنا عالمٌ بالنجوم ... يحدّثُنا بلســـــــــــان المـــــــلك[٦٢]

سل النجوم التي أراعيها ... عن ليلة الهجر كيف أقضيها[٦٣]

يستعرض الشاعر منظر طبيعي بالليلة التي يجدها طويلة فيشبه نجومها بالغرماء من ضمن ما قاله في الشيخ الوزير أبو نصر بن احمد وزير مدينة غرنة ، وتبدو النجوم بوصفها مكاناً يربطه الشاعر بالشخصية الأمير أبو الفضل الميكالي بمكارمه المتعددة التي وصلت العلا فكانت على قمم النجوم ليوحي بذلك على علو مكانة هذه المكارم بأن جعلها على قمة مكان عال في أعلى السماء ، ويربط الشاعر للمرة الثالثة المكان بشخصية إذ يذكر النجوم بحديثه عن صديقه المنجم العالم بهذا المكان السماوي ليقدم له المعلومات الفلكية الخاصة به ، ويربط الشاعر الصورة الرابعة للنجوم بشخصية بمعاناته مع الهجر وكيف يقضي لياليه فيطلب من القارئ أن يسلك النجوم التي يعمل على مراعاتها وهو في هذه الحالة من الهجر إذ يجعل من هذه النجوم شهوداً على حالته النفسية المتأزمة .

وتعطي النجوم دلالات الارتفاع والإضاءة والكثرة العددية في زينة السماء لقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) .

د- الغيوم

ويذكر الشاعر الغيوم بوصفه مكاناً طبيعياً يتبع السماء إذ يقول :

الست ترى يا غرة الدهر والعصر ... محاسن هذا اليوم في الغيم والزهر[٦٤]

الغيمُ بيـــــــــــن ممسّكٍ ومعصفر ... والماءُ بيـــــــــــن مصندلٍ ومعنبر[٦٥]

غنّت بسؤددك الحمـــــــــامُ الهتّف ... وحكت أناملك الغيـــــــــوم الوكّفُ[٦٦]

يستحضر الشاعر (الغيم) بحديثه مع أبي نصر سهل بن المرزبان عن محاسن اليوم بعد أن يمدحه بكونه (غرة الدهر والعصر) بالغيم والزهر إذ يربط هذا المكان بالزهر إذ أن الغيم هو سبب المطر الذي ينمو فيه الزهر ، لذا قدم هنا علاقة السبب والمسبب ، ويقدم الشاعر الصورة الثانية للغيم بوصف الطبيعة ليوضح الحالة التي عليها بين الإمساك والإعصار ليبدو فيه الماء إذ يمعن الشاعر في

هذا الوصف الدقيق للطبيعة من خلال مكان سماوي شغله ، ويسعى الشاعر في الصورة الثالثة إلى ربط المكان بالشخصية (الأمير أبو الفضل الميكالي) بمدحه بأن الحمام يتغنى بسؤدده ، ويجعل الغيوم الحاكية عن مآثره ومفاخره للإيحاء بمكانة هذا الأمير المعطاء كعطاء الغيوم التي تمد الحياة بالمطر (الماء) الذي هو أساس الحياة وازدهارها ونموها .

المبحث الثاني : المكان الصناعي

هو المكان الذي تتدخل يد الإنسان في تشكيله وإعطائه طابعاً مختلفاً عن غيره[٦٧] إذ يكتسب هذا المكان بنيته من الحياة الاجتماعية التي عاشها الشاعر وما يحمله له من المشاعر والأحاسيس والعواطف ، و تبدو علاقة الشاعر ببعض الأمكنة الصناعية علاقة ايجابية تقوم على مشاعر الألفة أو مشاعر سلبية تقوم على مشاعر العداء[٦٨] وللمكان الصناعي أثر في حياة الشاعر فهو له الدور الكبير في تشكيل الفرد وأحاسيسه وانفعالاته منذ مراحله المبكرة لذا يبرز الوعي والإحساس بالانتماء[٦٩] . ويستحدث الإنسان المكان الصناعي وكلما كان مؤثراً ومصاغاً بإتقان تخيلي يتسم بالصدق الفني[٧٠] .

١- المدن غير العربية

زخر شعر الثعالبي بذكر المدن غير العربية التي عاش فيها وتنقل طلباً للعلم وللمديح ولتغبير الحال بوصفها أمكنة صناعية .

- **نيسابور**

يذكر الشاعر نيسابور كثيراً من خلال مناظرها الجميلة ومدح الأشخاص إذ يقول :

إني أحاجي منك فرداً في الحجى ... تزهـــــو بـــــــه الدُّنيا ونيسابورُ[٧١]

يا بدر صـــــــدرٍ بنيسابورَ مطلعُهُ ... وبحر جودٍ لأهل الفضل مترعُه[٧٢]

وإن توطّيتَ نيسابورَ طبّقت الـ ... ـعلياءُ منك بلادَ السهل والجبل[٧٣]

ولمـــا نزلنا البشنقانَ التي غدت ... وراحت بجنّات النعيـــــم تشبّه[٧٤]

يقدم الشاعر مدينة نيسابور باللغز بشجرة الفرصاد كتب بها إلى أبي نصر سهل بن المزربان ليقدم إطراء يليق به بأن الدنيا تزهو بشخصه الكريم ولا سيما مدينة نيسابور إذ يعمل الشاعر على ذكر المدينة باسمها ليحيل في الصورة الثانية إلى المدينة بشكره

للميكالي وقد سعى كرماً له إذ يجعله بدر صور هذه المدينة وبحر من الجود ، وينتقل في الصورة الثالثة لوصف حركة ممدوحه أبو نصر الميكالي من جديد في هذه المدينة (نيسابور) بأنها تعادل العلياء من التحام السهل والجبل ليصل الشاعر في الصورة الرابعة إلى وصف أجمل متنزهات نيسابور (بشنقان) مما يدل على ولع الشاعر بهذه

وصاحبُ بُستٍ ذلك الضيغم الذي
عشقتُ الجـــــــود جداً فهو طبعُك
وإن اقمتَ ببستٍ فهـــــــــي قِبلةُ آ

يربط الشاعر مدينة (بست) بصاحبها (ناصر الدين سبكتكين) بمدحه ووصفه بالضيغم أي الأسد لشجاعته وقوته في محاربة الهنود إذ على يديه فتحت هذه المدينة إذ يربط الشاعر المكان بالتاريخ ، ويعود الشاعر في الصورة الثانية لذكر بست بعشقه للجود الذي دعاه لان يقبل بست بصورة لفظية رائعة (وبست بست) بشيخه أبي الفتح البستي لأنه أساس مربعه ، ويذكر الشاعر

تفاح غزنة نفاعٌ ونفّاح
واهاً لغزنـــــةَ إذ غَدت للملكِ والإســـــــــــلام
دارا[٧٩]

ويعود الشاعر من جديد لذكر المدن بوصفها مكاناً صناعياً إذ يقدم (غزنة) بما عرفت به هذه المدينة من (التفاح) المدينة وجمالها الأخاذ ولا سيما هذا المتنزه الذي يشبهه بجنة النعيم من ألقه وبهائه.

- **بست**

ويقول الشاعر عن مدينة بست :

براثنهُ للمشرقيـــــــــــــــن مفاتحُ[٧٥]
وبُستُ ترابِ بَستٍ فهـــــي ربعك[٧٦]
مالِ العفاةِ وحصنُ الخائف الوجلِ[٧٧]

في نصه الشعري الثالث إقامته بهذه المدينة التي يعدها قبلة الآمال لما وجد فيها من الراحة فهي بمثابة الحصن الآمن ضد كل خوف واضطراب .

- **غزنة**

ويقول الشاعر عن غزنة :

كأنّه الشهد والرَّيحانُ والراح[٧٨]

الذي يصفه بكونه نفاعاً ونفاحاً فهو يشبهه بالشهد والريحان والراح من حلاوة طعمه وجمال شكله ورائحته الطيبة ، ويقدم في النص الثاني (غزنة) بأمجادها ومفاخرها إذ تمثل دار الملك والإسلام لما

تميزت به من دون سائر المدن غير العربية التي عاش فيها إذ ترتبط هذه المدينة بملكها ومن تولى فتحها وحكمها فيما بعد .

- **خوارزم**

لله بردُ خـــــــــوارزم إذا كلبت ... أنيابُه وكست أبداننا الرّعدا[٨٠]

كأنّما جنةُ الفردوس قد نزلت ... إلى خوارزم تعجيلاً لصاحبه[٨١]

يقدم الشاعر مدينة (خوارزم) بوصف ليلة برد قضاها فيه ، فيستعرض هذا البرد بتشبيهه بالوحش الذي كبل أنيابه ، وتشبيهه بالثوب الذي كسا الجسم رعدا مما يوحي بشدة ضراوة البرد الذي تعاني منه هذه المدينة ، وتبدو صفة هذه المدينة من جديد بقصر ملكها ، ويشبهها الشاعر بأنها حبة الفردوس من كثرة جمالها وبهائها وان هذه الجنة تداخلت على هذا المكان الذي يسمى خوارزم.

ويذكر الشاعر خوارزم مرتين في شعره إذ يقول :

- **جرجان**

ألا ربَّ يومٍ لي بجرجانَ أرعنٍ ... ضحكتُ له من خرقِهِ أتعجّبُ[٨٢]

الفتح منتظمٌ والدهـــــــرُ مبتسِمُ ... وظلُّ شمس المعالي كلّهُ نِعمُ[٨٣]

يقدم الشاعر مدينة جرجان باختلاف الهواء فيها مما يدل على ربط الشاعر هذه المدينة بتقلبات الجو والمناخ مما يدعو إلى العجب من هذا الاختلاف الذي يحل فيها ، ويستعرض الشاعر المدينة بعد الفتح عندما استعادها قابوس بن وشمكير إذ يصفها بلاد الفتح ، مما يدعو إلى ابتسام الدهر ونعم الملك على هذه المدينة التي عادت إلى أحضان أهلها .

- **فتح الري وكرمان**

وقد فتح الريَّ فراشّه ... وكرمانُ يفتحها سائسُه[٨٤]

ويجمع الشاعر بين مدينتين فتح الري (مدينة قرب نيسابور) وكرمان (ولاية بين فارس وخراسان) بمدحه لسلطان غزنة (مسعود) الذي فتح هاتين المدينتين ليدل على ارتباط المكان عند الشاعر بالشخصيات الممدوحة وبشخصيته بمشاعره الداخلية .

- **جرجانية**

وصاحب جرجانيّة في ندامةٍ ترصّده طرفٌ من الحين طامحُ[٨٥]

ويستعرض الشاعر مآثر هذه المدينة بصاحبها (مأمون بن محمد) الذي قتل في مجلس ندامة مما يوحي بالخطر الذي تهدده من الجهات كلها لذا يعرض الشاعر المدينة ويربطها بالتاريخ .

- **سرخس**

ويا بؤسَ منصور وفي يوم تمزّق عنه ملكه وهو طامحُ[٨٦] سرخسٍ

ويقدم الشاعر مدينة سرخس (مدينة قديمة من نواحي خراسان بين مرو ونيسابور) من خلال ملكها (منصور) الذي قام بالملك بعد وفات أبيه ومن ثم خلع وسمل فيها بعد مما أدى إلى تمزيق ملكه فيقدم الشاعر ذلك بمزيد من الحزن والأسى .

- **سجستان**

هذي زرنجُ استغلقت وتمنعت فكأنّها- إلا عليك – حرامُ[٨٧]

ويصل الشاعر إلى مدينة سجستان ليقدمها باسم أخر هو (زرنج) ليدلل بها على الاستغلاق والتمنع إذ أصبح الدخول إليها على سبيل الحرام إلى أن فتحها السلطان محمود الغزنوي فأصبح الدخول إليها يسيراً .

٢- المدن العربية

ويذكر الشاعر المدن العربية أقل مما يذكر المدن غير العربية إذ يقول :

وصاحبُ مصرٍ قد مضى لسبيله ووالي الجبال غيّبته الصفائح[٨٨]
بُليـــــــت والله بمملوكـــــــةٍ فـــــــي مقلتيها ملكا بابل[٨٩]
بشعر ابن معتزّ وخطّا ابن مقلةٍ ودولةِ مسعود وخلقِ مسافر[٩٠]

يقدم الشاعر (مصر) بصاحبها نزار بن معد العزيز بالله إذ يحدد الحدث الذي الم بهذه المدينة بعد غزو الملك لبلاد الروم إلى انه مضى لسبيله ليربط هذه المدينة العريقة (مصر) بوالي الجبال أبو الحسن علي بن ركن الدولة البويهي في حين يستحضر الشاعر بابل المدينة القديمة بما ابتلاه به الله تعالى بحب مملوكة يجد في عينها ملكا بابل ما يدل على تعلقه الشديد بهذه المملوكة إذ يصف جمال عينيها بجمال بابل المدينة التي تأسر القلب والعين والإحساس والوجدان لجمالها وبهائها ، ويوحي الشاعر بذكر الشخصيات إلى المكان فابن المعتز شاعر وخليفة عباسي في بغداد وابن مقلة صاحب الخط

المشهور، ويربط أمكنة هذين العلمين بدولة مسعود السلطان محمود الغزنوي الذي مدحه كثيراً .

الخاتمة

- زخر شعر الثعالبي بمجموعة من الأمكنة الطبيعة الأفق والسماء والأرض واليابسة من حيث الرياض والجبال والصحراء فضلاً عن الماء (البحار والبرك والغدير والينبوع) وأمكنة السماء مت الشمس والقمر والنجوم والغيوم . وهو بذلك يستعرض الأمكنة كأنه يقدم لوحات فنية طبيعية بأشكال متنوعة وألوان متعددة تأتي من وصف الأمكنة من ألوان موجودات الأرض والسماء .
- جاء اهتمام الشاعر بالمكان الصناعي من حيث ذكره للمدن غير العربية (. . . المدن) . . وقد جاء الشاعر بهذه المدن ليعرض جانباً من حياته فيها فضلاً عن ذكر الأحداث التاريخية التي ارتبطت بها لذا يعد شعره بمثابة وثيقة تاريخية في ذكر والأمكنة والأحداث.

هوامش البحث ومصادره ومراجعه

(١) ينظر : ابن منظور (ت ٧١١ه) ، لسان العرب ، تحقيق : جماعة من المحققين ، دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت) ، مادة (مكن) : ١٠ / ٢٩٢ .

(٢) حسن مجيد العبيدي ، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد، ١٩٨٧: ١٨ .

(٣) ينظر : عبد الرحمن بدوي ، مدخل جديد إلى الفلسفة ، وكالة المطبوعات ، ط١ ، الكويت ، ١٩٧٥ : ١٨٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٩٧ .

(٥) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ : ١٩١ .

(٦) اعتدال عثمان ، جماليات المكان ، مجلة الأقلام ، بغداد ، العدد (٢) لسنة ١٩٨٦ : ٧٦ .

(٧) ينظر : ياسين النصير ، إشكالية المكان في النص الأدبي : دراسات نقدية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ١٩٨٦ : ١٥١ .

(٨) ينظر : مجموعة باحثين ، جماليات المكان ، عيون المقالات ، ط٢، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ :٣ .

(٩) النصير ، المصدر السابق : ٥ .

(١٠) د. احمد زنبير ، المكان في العمل الفني : قراءة في المصطلح ، مجلة عمان ، عمان ، العدد (٢٩)لسنة ٢٠٠٦ : ١٣ .

(١١) د. محمد وحيد الدين سوار ، النسبية والشعر في الزمان والمكان ، الجمعية التعاونية للطباعة ، دمشق ، ٢٠٠٣ : ١٨ .

(١٢) د. حيدر لازم مطلك ، الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي، دار صنعاء، ط١، عمان، ٢٠١٠ : ١٥٥

(١٣) د. باديس فوغالي ، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، جدارا للكتاب العالمي ، عالم الكتب الحديث ، ط١ ، عمان ، ٢٠٠٨ : ١٨١ .

(١٤) ينظر : فتحية كلحوش ، بلاغة المكان : قراءة في مكانية النص الشعري ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٨ : ١٧ .

(١٥) ينظر : عثمان ، المصدر السابق : ٨١ .

(١٦) ينظر : د. محمد النويهي ، ثقافة الناقد الأدبي ، مكتبة الخانجي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٩ : ٢٣٧ .

(١٧) ينظر : الحصري القيرواني ، زهر الآداب ، تحقيق : علي البجاوي، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ : ٢٧ .

(١٨) ينظر : المصدر نفسه : ٤/ ٣٣ .

(١٩) ينظر : القاضي ابن شهيد ، طبقات النحاة واللغويين ، المكتبة المركزية ، بغداد ، ١٩٨١ : ٢/ ٣١٢ .

(٢٠) ينظر : ابن خلكان ، المصدر السابق :١٨/١ .

(٢١) ينظر : المصدر نفسه :٢/ ٣٥٢ .

(٢٢) ينظر : د. محمد عبيد السبهاني ، المكان في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، دار الأفاق العربية ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٧ : ٧٣ .

(٢٣) ينظر : النويهي ، المصدر السابق : ٢٤٥ .

(٢٤) ينظر : أحمد أمين ، النقد الأدبي ، دار الكتاب العربي ،ط٤ ، بيروت ، ١٩٦٧ : ١٠٢/١ .

(٢٥) ينظر : د. أنور عليان أبو سويلم ، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ط١ ، الرياض ، ١٩٨٣ : ٢٦١ .

(٢٦) ديوان الثعالبي : ٢٣ .

(٢٧) المصدر نفسه : ١٢٦ .

(٢٨) المصدر نفسه : ١٢٧ .

(٢٩) المصدر نفسه : ١٤ .

(٣٠) المصدر نفسه : ٣٣ .

(٣١) المصدر نفسه : ٣٨ .

(٣٢) المصدر نفسه : ٦٥ .

(٣٣) المصدر نفسه : ١٠٥ .

(٣٤) المصدر نفسه : ٤٤ .

(٣٥) المصدر نفسه : ٦٥ .

(٣٦) المصدر نفسه : ٧٠ .

(٣٧) المصدر نفسه : ٨٩ .

(٣٨) المصدر نفسه : ٩٢ .

(٣٩) المصدر نفسه : ٣٧ .

(٤٠) المصدر نفسه : ٣٨ .

(٤١) المصدر نفسه : ١٦ .

(٤٢) المصدر نفسه : ٥٣ .

(٤٣) المصدر نفسه : ٥٣ .

(٤٤) المصدر نفسه : ١٤ .

(٤٥) المصدر نفسه : ٧٠ .

(٤٦) المصدر نفسه : ١٥ .

(٤٧) المصدر نفسه : ١١٤ .

(٤٨) المصدر نفسه : ٦٤ .

(٤٩) المصدر نفسه : ١٠٢ .

(٥٠) المصدر نفسه : ١٤ .

(٥١) المصدر نفسه : ٤٥ .

(٥٢) المصدر نفسه : ٥١ .

(٥٣) المصدر نفسه : ١٢٠ .

(٥٤) المصدر نفسه : ٥٣ .

(٥٥) المصدر نفسه : ٢٦ .

(٥٦) المصدر نفسه : ٦٣ .

(٥٧) المصدر نفسه : ٧٣ .

(٥٨) المصدر نفسه : ٢٦ .

(٥٩) المصدر نفسه : ٨٧ .

(٦٠) المصدر نفسه : ٩٨ .

(٦١) المصدر نفسه : ١٢٧ .

(٦٢) المصدر نفسه : ٦٠ .

(٦٣) المصدر نفسه : ٦٥ .

(٦٤) المصدر نفسه : ٨٦ .

(٦٥) ينظر : وليد أبو بكر ، القصة من جهة نظرية ، مجلة الأقلام ، بغداد ، العدد (٧) لسنة ١٩٨٩ : ٦٣ .

(٦٦) ينظر : سعيد يقطين ، قال الراوي : البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، الدار البيضاء ، ١٩٩٧ : ٢٤٠ .

(٦٧) ينظر : النويهي ، المصدر السابق : ٢٤٧ .

(٦٨) ينظر : يقطين ، المصدر السابق : ٢٥٥ .

(٦٩) ديوان الثعالبي : ٥٤ .

(٧٠) المصدر نفسه : ٨١ .

(٧١) المصدر نفسه : ١٠٥ .

(٧٢) المصدر نفسه : ١٢٦.

(٧٣) المصدر نفسه : ٣٨ .

(٧٤) المصدر نفسه : ٩٧ .

(٧٥) المصدر نفسه : ١٠٥ .

(٧٦) المصدر نفسه : ٤٠ .

(٧٧) المصدر نفسه : ٥٧ .

(٧٨) المصدر نفسه : ٤٥ .

(٧٩) المصدر نفسه : ٢٢ .

(٨٠) المصدر نفسه : ١٨ .

(٨١) المصدر نفسه : ١٠٩ .

(٨٢) المصدر نفسه : ٧٤ .

(٨٣) المصدر نفسه : ٣٧ .

(٨٤) المصدر نفسه : ٣٧ .

(٨٥) المصدر نفسه : ١١٠ .

(٨٦) المصدر نفسه : ٣٧ .

(٨٧) المصدر نفسه : ١٠٦ .

(٨٨) المصدر نفسه : ٥٩ .